علم الصرف مقاربة ـ في الأصول والمصطلح والمنهج

توطئة المحاضرة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

قال ابن جني: ((وهذا القبيل من العلم -أعني التصريف- يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة؛ لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف؛)) المنصف: ابن جني ، مج1، ص02.

دراسة مباحث الصرف ضمن مباحث علم النحو

ـ أولا: ما معنى الصرف والتصريف لغة و اصطلاحا ؟

الصرف لغة:يقال: صرف الشيء صرْفًا: ردّه عن وجهه. ونقول: صرف الله عني الأذى. وصرف المال: أنفقه، والكلام: زيّنه، والشرابَ: لم يَمْـزُجْهُ، و صرَّف الألفاظ : اشتق بعضَها من بعض. وصَّرف الأمر تصريفا: أي بيّنه، لقوله تعالى﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾الإسراء؛ أي : بيّنا بكل الأساليب المختلفة.وقوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾البقرة.بمعنى: توجيهها وجهات مختلفة.

وفي اصطلاح النحويين: علم الصرف ميزان اللغة العربية الذي لا يمكننا الاستغناء عنه؛ يبحث في التغيير الذي يطرأ على **بنية الكلمة** من أصالة وزيادة، وحذف، وصحة وإعلال، وإبدال وقلب ونسبة وتكسير وتصغير، إلى غير ذلك وقد وسمه العلماء باسم: **"التصريف"** لما في الكلمة من معاني التغيير والتقلّب والتحوّل الذي تتخذه أبنية الكلم في اللغة العربية.

و التصريف: على زنة "تَفْعيلٌ " مِنَ الصَّرْفِ، وهو ((علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من زيادة، وأصالة، وصحّة واعتلال، وشبه ذلك)) . ابن مالك: إيجاز التعريف في علم التصريف، ص3.

أي هو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها، كاسمي الفاعل والمفعول، واسم التفضيل، والتثنية والجمع. وعند العلماء، ((علم **بأنفس الكلم الثابتة**)).والكلم جمع تكسير مفرده كلمة. وتجمع على كلمات(جمع مؤنث سالم).

والتصريف أبلغ من الصرف في معنى التغيير، والصرف أبلغ من التصريف في معنى التحويل والتقليب.لأنه يدل على العمل والتدريب وكثرة التمرين. كما يعدّ التصريف الشق التطبيقي والعملي، أما الصرف فهو حامل للمعنى العلمي والنظري. وأخيرا يدلّ التصريف على كثرة دوران الأبنية واشتقاقها، أما الصرف فيرتبط بالأصول الكلية التي يبنى عليها معرفة أحوال الكلم.

والتصريف نوعان: نوع تجعل فيه الكلمة على صيغ مختلفة، وبمعان متشعبة، نحو: قتل وقتَّل وتقاتل، واقتتل الخ...

والضرب الثاني من التصريف، هو تغيير الكلمة عن أصلها، من غير أن يدل ذلك التغيير على معنى طارئ، على الكلمة، كتغييرهم: قَوَلَ إلى قَالَ، وبيع إلى باع الخ...

وهذا التغيير يمكن حصره في:

(النقص) نحو: عدة (**وعَد يعِد عِدة**)، والقلب نحو: قال وباع (الأصل **قوَل وبيَع**)، والإبدال نحو: اتَّزن و اتَّقد (أصلهما: اوْتَزَن و اوْتقَد). والنّقل، كنقل الحركة في: يَقْوُل إلى يَقُوْل ويَبْيِع ويَبِيْع.

بدأ علم الصرف أو التصريف مع ظهور علم النحو، ويتفق الدارسون في أن علم النحو مصطلح جامعٌ، لأهم القواعد والضوابط التي تتعلق في شكلها ومضمونها بعلم العربية الذي كان يضم في أوله مقاربة للغة والأدب والصرف والاشتقاق والخط وقرض الشعر والعروض وأساليب الخطب والرسائل والمعاني والبيان[1]، فكان البحث في النحو-في البدايات الأولى لنشأة الدراسات اللغوية والأدبية - ممتزجا دائما بالبحث في اللغة والأدب وعلم القراءات وأخبار العرب وتاريخهم، ولعل المطّلع على كتاب (الكامل في اللغة والأدب) للمبرّد(ت 216هـ) سيجد معظم متنه عبارة عن مزيج من مسائل اللغة والنحو والصرف والأدب، شأنه في ذلك شأن جل المؤلفات النحوية التي لم يكن أصحابها يفرقون بين المصطلحات العلمية التي من شأنها أن تكون حائلا علميا يميز فيه منهجيا بين كل علم وعلم.

و عليه وجد الباحثون بأنّ نشأة علم(الصرف) قد سارت ملازمة لنشأة علم النّحو، لأنّ الأسباب التي اقتضت ظهورهما أسباب مشتركة ، ولم يكن دارسو اللغة يفرقون بين لحن في الإعراب ولحن في بناء الكلمة ، لأنّ مسائل اللّحن الصّرفية كانت تعالج مع مسائل اللحن النّحويّة ، لذا وجدْنا في أوّل عهد التّصنيف في العربية وعلومها إدراج مباحث علم التّصريف في أثناء مباحث علم اللّغة من دون تمييز بين مبحث وآخر، لأنّ الفصل بين هذه الدّراسات لم تتهيّأ له

(1) ينظر: عبد العال سالم: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1993،ص228 ومابعدها

أذهان العلماء بعدُ، فعلماء النّحو والصّرف كانوا علماء اللّغة، يضاف إلى ذلك أنّ النّحو والصّرف يجمعهما غرضٌ واحد، وهدف مشترك هو ضبط الألفاظ بناءً وإعراباً، وما تقتضيه صحّة الاستعمال اللّغوي وسلامته من اللحن والخطأ، وبسبب من ذلك نشأ الدّرس اللّغوي عند العرب والمسلمين شاملاً فروع هذا العلم، على اختلاف بين العلماء في الاهتمام بمعالجة جانب معيّن من جوانب اللّغة.

فمن العلماء من جمع بين فروع الدّرس اللّغوي، ومنهم من اهتمّ باللّغة بموضوعاتها المختلفة، كالغريب والنّادر والمترادف والمشترك، وغيرها من الظواهر اللّغويّة. ومنهم من اهتمّ بالتّصريف فشغل حيزاً كبيراً من دراسته، لأنّ الكتب التي أرّخت لهذه العلوم لم تُبد تمييزاً واضحاً بين النّحو والتّصريف وقد بقي إدراج التصريف في النّحو قائماً منذ أيّامه الأولى، لأنّ المتقدمين كانوا يعرّفون النحو بأنّه((علم يبحث عن أحوال الكلم العربي إفراداً وتركيباً)). ويؤكد هذا المنحى ابن جني بقوله:((لا تكاد تجد كتابا في علم النحو إلا والتصريف في آخره))[1].

وقد ذكر السيوطي بأن أوّل من وضع علم التصريف[2] هو معاذ بن مسلم الهرّاء الكوفي(ت187هـ). في حين يُقدّر المستشرق بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي" الواضع الأول لعلم التصريف بأنه معاصر أبي مسلم معاذ أبي جعفر الرؤاسي(ت190هـ)؛ مستدلا في ذلك بكتاب صنّفه في موضوع **التصغير**.

فقد بدأ علم التصريف قسما من الأبواب النحوية، حيث ظلت جل المباحث التصريفية ممزوجة بعلم النحو بسبب شمولية دلالته اللغوية كما أشرنا سابقا.

وظل علم التصريف قسما من علم النحو فترة طويلة من الزمن، حتى جاء من يخصّصه ويضبط مصطلحاته ثم يخرجه في شكل مصنف ظاهر للعيان وهو إمام الطبقة السادسة من البصريين **أبي عثمان المازني**(ت248هـ).من خلال مصنَّفه البديع ((**التصريف**))، حيث اعتبره المؤرخون أوَّل مُصنَّف مستقلّ في علم التصريف، وهو يضاهي في ذلك كتاب سيبويه في النحو.

وفي هذا المعنى يقول صاحب ((كشف الظنون)) :((وكتاب المازني في التصريف ككتاب سيبويه في النحو، لأن كلّا منهما أصل، ذاك في النحو، وهذا في التصريف))[3].

وكخلاصة لما سبق يقول اللغويون بأن علم الصرف ـ في نشأته ـ قد مرّ بثلاثة أطوار[4]:

---

(1) ابن جني: المنصف(شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جنّي لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني) ، ج1، ص4.

(2) ينظر: عبد الله بن حمد الخثران: مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص112.

(3) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مج3، ص288.

(4) ينظر: مهدي آل نهان القرني: الترتيب الصرفي في المؤلفات النحوية والصرفية، مجلة، ص2 وما بعدها

1 ـ طور اندماجه مع النحو في قرن واحد دون تفريق أو تمييز: ويمثل هذا الطور أوائل النحاة سيبويه في (الكتاب) و المبرد في (المقتضب) وابن السراج في (أصول النحو).

2 ـ طور الانفصال الجزئي أو الاستقلال التدريجي للمسائل الصرفية: و يمثل هذه المرحلة الفاصلة: المازني في كتابه (التصريف)، و الفارسي في كتابه(التكملة على الإيضاح)، و ابن جني في مصنَّفه (المنصف).

3 ـ طور الاستقلال الكلي حيث صار علم الصرف نظيرا لعلم النحو: ويمثل هذا الطور من المتأخرين: الجرجاني وابن عصفور وابن الحاجب وابن مالك وغيرهم.

ثالثا ـ الأصول التي بنيت عليها دعائم علم الصرف

1.سيبويه: الكتاب (181 /180هـ)؛ ظهر مصطلح التصريف تحت مُسمّى ((**القياس اللغوي**))، ويظهر هذا المعنى من خلال باب وسمه سيبويه بقوله: ((هذا باب ما بنت العرب من الأسماء والصفات و الأفعال غير المعتلة، وما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء في كلامهم إلا نظيره من غير بابه، وهو الذي يسميه النحويون التصريف والفعل))[1].

ومعنى كلام سيبويه بأن التصريف هو تغيير الكلمة من وزن إلى وزن آخر، سواء كان من باب المعتل أو من باب الصحيح، وعليه يقاس الصحيح على وزن المعتل الذي لم يأت على صورته والعكس صحيح، وهو ما يعني ضمنيا قياس غير المسموع من كلاك العرب على ما سمع من كلامهم، بغرض التمرين والتدريب على معرفة قوانين الإبدال والقلب والحذف، والميزان الصرفي.

2. المُبَرّد: المُقْتَضَب (ت285هـ)؛ لم يميز بين المواضيع الصرفية والنحوية، واكتفى بذكر بعض المباحث المتعلقة بالتصريف[2]، كالنسب والمقصور والممدود.

3. ابن السَّراج: الأصُول في النّحو(316هـ)؛ تحدث بوعي عن علم التصريف من خلال قوله: ((و هذا الحدّ إنما سُمّي تصريفا لتصريف الكلمة الواحدة بأبنية مختلفة، وخصوا به ما عرض في أصول الكلام من وذواتها من تغيير، وهو ينقسم خمسة أقسام: زيادة وإبدال وحذف، وتغيير بالحركة والسكون، و إدغام له حدٌّ يعرف به))[3].

---

(1) سيبويه: الكتاب، ج4، ص242

(2) المبرد: المقتضب، تح: محمد عضيمة، مطابع الأهرام، القاهرة، 1994، ج3، ص79، 133، 150.

(3) ابن السراج: الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1996،ج3، ص231.

قسم اللغة العربية وآدابها * جامعة بجاية
الأستاذ: سمير أبوعبدالله
محاضرات في علم الصرف
العربي

4. ابن جني(392هـ)؛ ألف كتابا في علم الصرف سماه: **التصريف الملوكي**، وكتاب ((المنصف)) وهو شرح كبير لكتاب التصريف للمازني، عرّف فيه علم الصرف بكثير من الأمثلة والتمارين في قوله: ((وهذا القبيل من العلم أعني التصريف، يحتاج إليه جميع أهل العربية أتمّ حاجة، وبهم إليه أشدّ فاقة، لأنه ميزان العربية، وبه تُعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف، وذلك نحو قولهم: إن المضارع من فَعُلَ لا يجيءُ إلا على يَفْعَلُ بضم العين. ألا ترى أنّك لو سمعت إنسانا يقول: كرُمَ يكْرَمُ بفتح الراء من المضارع، لقضيت بأنه تارك لكلام العرب؛ سمعتهم يقولون أو لم تسمعهم؛ لأنّك إذا صحَّ عندك أن العين مضمومة في الماضي قضيت بأنها مضمومة في المضارع أيضا قياسا على ما جاء(...) ومن ذلك أيضا قولهم: إن المصدر من الماضي إذا كان على مثال أفْعَلَ يكون مُفْعلا بضمّ الميم وفتح العين نحو؛ أدخلته مُدْخلا، وأخرجْته مُخْرَجا...فهذا ونحوه مما يُسْتدرك من اللغة بالقياس))[1].

ورغم هذه التمارين الرياضية التي مثّل بها ابن جني في تبيينه لموضوعات التصريف؛ إلا أنّه يُصرّح في معرض حديثه بديمومة بقاء علم التصريف قسما تابعا لعلم النحو ونحن في منتصف القرن الرابع الهجري؛ يقول ابن جني:((إلا أن التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف، كما أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق، يدلّك على ذلك أنك لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره، والاشتقاق إنما يمرّ بك في كتب النحو منه ألفاظ مشرّدة لا يكاد يعقد لها باب))[2].

---

(1) ابن جني: المنصف شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف، تح: إبراهيم مصطفى وآخرون، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، 1954، ج1، ص2.

(2) المصدر نفسه، ص4.

وبهذا العبارات المسترسلة من ابن جني نستطيع القول بأنه رغم التطور الحاصل في المباحث الصرفية من بداية الكتاب لسيبويه إلى غاية كتاب المنصف لابن جني، عبر كل هذه المدة الزمنية (منتصف القرن الرابع) لايزال علم الصرف قسما تابعا لعلم النحو في المبحث والتأصيل.

رابعا ـ ظهورعلم الصرف بأوّل مصنَّفٍ منهجي

إن المتتبع للتطور التاريخي لعلم الصرف يقع في خاطره ذلك التتابع المعرفي الذي ظل يحيطه من كل جوانبه، حتى إذا وقع بين أيدينا كتاب **المفتاح** في الصرف للعلامة عبد القاهر الجرجاني(471ه) أدركنا بأننا أمام ميلاد حقيقي لعلم الصرف بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالة؛ كيف ونحن أمام عالم مجدّد في مجال الدراسات اللغوية (النحوية والصرفية)، صرف همته إلى إتقان اللسان العربي من خلال مصنفات نحوية وصرفية؛ أهمها في الصرف **المفتاح**؛ الذي فتح به باب الاختصاص بقوله: ((اعلمْ أنَّ التصريفَ "تَفْعيلٌ " مِنَ الصَّرْفِ ، وهو أنْ تُصرِّفَ الكلمةَ المُفْرَدَةَ ، فَتَتَوَلَّد منها ألفاظ مختلفة، ومعانٍ متفاوتة.))[1] إلى أن يقول: ((ثُمَّ إنَّه مُشْتَرك بين الأسْمَاءِ والأفْعالِ في الصِّحَّةِ والإعْلالِ ، والقَلْبِ ، والإبْدالِ ، والوَزْنِ ، والتَّمْثِيلِ . وهُوَ أنْ تقَابِلَ حُرُوفَ الكَلِمَةِ الثلاثِيَةِ: بِالفَاءِ، والعَيْنِ، واللّام، وتُكَرِّرَ اللاَّمَ فِي الرُّبَاعِيِّ مُطْلَقاً، وَكَذَا فِي الاسْمِ الخُمَاسِيِّ، إذْ لا خُمَاسِيَّ فِي الفِعْلِ لِثِقَلِهِ أصْلِيًّا))[2].

وبهذا يتبيّن للقارئ صحة الانتقال من عمومية علم النحو إلى خصوصية علم الصرف كمبحث علمي ومنهجي، يختص بدراسة بنية الكلمة من حيث الاشتقاق والصحة والإعلال والقلب والإبدال وغيرها من الأمور التي تطرأ على أنفس الكلم فتتطلب معرفتها، تمرريها على الميزان الصرفي (ف ع ل).

خامسا ـ إقرار ابن عصفور الإشبيلي بأحقية تقديم علم الصرف على علم النحو

إذا كان مُصنَّف المازني قد نال فضل التلميح إلى ضرورة استقلال علم الصرف عن علم النحو، وإذا كان الجرجاني قد حاز فضل تثبيت استقلال علم الصرف عن علم النحو بشكل بيّن وواضح، فإن ابن عصفور الإشبيلي (ت669ه)؛ قد فاق أهل عصره لا بفصله مطلقا لعلم الصرف عن علم النحو، بل بدعوته المبَّكرة إلى ضرورة تقديم على الصرف على علم النحو بقوله في مقدمة كتابه الممتع في التصريف:((وقد كان ينبغي أن يُقدَّم علم التصريف على غيره من علوم العربية، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها، من غير تركيب ومعرفة الشيء في نفسه قبل

---

(1) الجرجاني: المفتاح في علم الصرف، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص26.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

أن يتركب، ينبغي أن تكون مُقدَّمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب. إلا أنّه أخِّر، للطفه ودقّته، فجُعل ما قدِّم عليه من ذكر العوامل توطئة له، حتّى لا يصل إليه الطالب، إلا وهو قد تدرّب، وارتاض للقياس))[1].

و يعدّ ابن عصفور الإشبيلي من علماء الأندلس الكبار؛ يصفه المؤرخون بأنه حامل لواء اللغة العربية في زمانه، ومن العلماء المحققين الذين ألّفوا في **فن الصرف**، وجعلوا له مصنفا مستقلا، وهو كتاب **"الممتع في التصريف"** الذي وصفه الدارسون بأنه من أمثل كتب علم الصرف التي قلّما يخلو من مسائله كتاب من كتب النحو.

ومن فرط قيمته لدى النحويين، أعجب به أبو حيّان الأندلسي كثيرا، إلى درجة أنه قام بإخراجه في صورة مصنّف آخر، سمّاه: **المبدع في التصريف**[2]، مبيّنا بأن كتاب: ((الممتع)) ، أحسنَ ما وضع في هذا الفن ترتيبا، وألخصه تهذيبا، وأجمعه تقسيما، وأقربه تفهيما.

---

(1) ابن عصفور الإشبيلي: الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ج1، ص30، 31.

(2) ينظر: أبو حيان: المبدع في التصريف، تح: عبد الحميد السيّد طلب، دار العروبة، الكويت، ط1، 1982، ص46.